[٢]

كتاب بذل فيه جهد كبير في جمع المعلومات الغزيرة ، ويتميز بأسلوب سهل متزن ودسم في الوقت نفسه ، بحيث أن كل لفظ فيه يقصد معنى أو فكرة . ولكن السمة العامة والبارزة التي يمتاز بها هذا الكتاب هي منهجه : انها دراسة تحليلية للمراحل التاريخية المختلفة التي مرت بها نضالات الشعب العربي الفلسطيني حتى النكبة . وفي الحقيقة ، كان الاوفق أن يكون عنوانه « تطور الحركة الوطنية الفلسطينية » . فاذا كان المؤلف قد أعطى للاحداث وتواليها الزمني اهتماما ، وأبرز بطولات الافراد والمجموعات والجماهير الفلسطينية التي دافعت عن أرضها في شرف وتضحية ، الا أنه وجه معطيات البحث بحيث تشكل خطوطا تربط بين الوقائع وتفسرها الى درجة كبيرة . وفي أغلب الاحيان نجد الكاتب يشاركنا في استنتاج هذه الخطوط العامة بأن يوضحها على صورة تمهيد تسرد الحوادث أو خاتمة تستخرج منها العبرة .

وقد عنى مؤرخون ـ سبقوا عبد القادر ياسين ـ باحياء التراث الكفاحي للشعب الفلسطيني المجيد . وكانت أعمالهم مفيدة وهامة ، وان اكتفت غالبا بتسجيل الاحداث . فقد ساعدت على تأكيد الوجود الحاضر لهذا الشعب باعتباره استمرارا لماضيه الطويل ، وقوت جذوره في أرضه ولو عاش في المنفى . فكانت مساهمة عظيمة في تلك العملية التي أثمرت بتبلور الشخصية الفلسطينية وظهورها في الميدان العربي كقوة لها ذاتيتها ويستحيل طمسها .

الا ان التنقيب في التاريخ الفلسطيني باعتباره مادة يدرسها العلم أمر حيوي . وذلك لأن التحليل العلمي يرمي الى البحث عن القوانين العامة التي حكمت سير الاحداث وترابطها ، ودفعت بالافراد والجماعات الى التحرك في الاتجاه العام الذي تدل عليه خطواتهم . ومتى أدرك الانسان قانونا من قوانين العلم ، استطاع ان يستخدمه أداة لصالحه . ومن هنا كانت القيمة الكبرى لمؤلف عبد القادر ياسين . اذ أنه يعيد أسباب الصراع السياسي وأساليبه ونتائجه الى المصالح الطبقية المتواجدة . ويوضح أن هذه المصالح بدورها صادرة عن علاقات اقتصادية واجتماعية موجودة ، ولكنها غير ثابتة وتتطور . وتستقطب عوامل التطور الاقتصادي هذا الطبقات الاجتماعية والقوى السياسية المعبرة عنها الى معسكرين ، أحدهما معسكر التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي ، والاخر معاد له . ولكل منهما طليعة قيادية تتكون من الفئة الاجتماعية السائدة على الباقي والأقدر على فرض فكريتها وأساليبها . كما أن بين القيادتين جسورا وروابط كثيرا ما تحول دون ان ينتهي الصراع الى نتيجة حاسمة .

ومنذ أن قامت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، يتكرر التساؤل في بعض الاوساط الوطنية عن أسباب النكبة والهزائم المتتالية التي منيت بها الدول العربية بعد ذلك . فهل تكمن الاسباب فقط في المسؤولية الشخصية لهذا الفرد أو ذاك من الحكام والقادة ؟ لو كان هذا صحيحا لانحصرت المشكلة في اختيار الحاكم الصالح ، وقد حدث فعلا أن تولى قادة وطنيون في هذه الفترة او تاك ، ولكنهم فشلوا ، مما يدل على ان الامر ليس قضية فرد دون غيرها ... أم ان التخلف الحضاري العربي والفقر يجعلان مستحيلا التغلب على القوة الصهيونية الاستعمارية بملايينها وجيوشها الآلية ومفكريها المستعينين بالحاسبات الالكترونية ؟ ولكننا نشهد شعوبا فقيرة ومتخلفة أيضا ـ في كوبا وفيتنام ، وفي كامبوديا وبنجلاديش وأريتريا ـ تنزل الضربات القاصمة بذلك العملاق الامريكي وأعوانه ، وتزيحهم من طريقها .

يجيب كتاب عبد القادر ياسين على ذلك التساؤل في ثنايا صفحاته ، وان كنا نعاتبه على عدم وضع اجابته في صيغة مركزة محددة : تستطيع الحركة الوطنية أن تنتصر لو كان لها واضحا أن العدو الاساسي هو الاستعمار ، ولو تبنت قيادتها خطا سياسيا يعبر عن مصالح الجماهير الكادحة الواسعة ، ولو أقامت الطليعة شبكة من الارتباطات التنظيمية المتينة بينها